الأنصار العرب (٣٦)

معركة العيد في (جاجي)

حفلت الأسابيع الأخيرة التي مرّت على مأسدة الأنصار فى « جاجي » بالإنجازات وبالمستجدات المتسارعة .. وفي تحوّل نوعي غير مسبوق ، تطور النشاط اليومي هناك من مرحلة الإعداد والترقب والكمون .. إلى المبادأة والمبادرة والهجوم .. وسرعان ما سرت في الشباب المتحمسين نشوة التفوق الذي أحدثته العمليات الصغيرة منذ منتصف شعبان الماضي على مواقع العدو المحيطة ، لتدفعهم إلى طلب المزيد من العمليات المماثلة ، فى الوقت الذي دفعت العدو إلى اتخاذ قرار سريع بوجوب الرد الحازم على هذا النشاط الإزعاجي الذي تتبدى من ملامحه العامة بصمات المتطوعين العرب ، فتؤكدها تقارير الجواسيس المندسين في المنطقة ، وتعيد محادثات العرب أنفسهم عبر أجهزة الإتصال فيما بينهم تأكيدها – وهي تنطلق بالعربية طبعاً – بين مراكز المأسدة المتعددة ، ومن المأسدة إلى العرين .. أو إلى غُنْد سياف .. وبالعكس ، في منطقة تدخل تلقائياً ضمن إمكانيات أبسط الأجهزة المعادية فى التصنت والتلقي والإستماع !

كان أبو عبدالله قد عاد إلى المأسدة صبيحة الثامن عشر من رمضان (١٤/٥) بعدما أمضى ليلته السابقة في العرين قادماً من السعودية .. وفى الثاني والعشرين من رمضان – الثلاثاء – أرسل أبا محمود إلى صدى برسالة للشيخ سياف ، وجرت الإتصالات مع حكمتيار ، وربما مع « الجمعية » أيضاً لتأمين مشاركة الجميع في هجوم كبير على بوسطات العدو فى الوادي .. « وكادت الإستعدادات تتم – كما يذكر أبو عبدالله – في الرابع والعشرين من رمضان .. وإذْ بالأخبار تصلنا أن قوة قوامها تسعة آلاف رجل من جيش حكومة كابل قد تقدموا يريدون الهجوم على مواقع المجاهدين وقفل الطريق وإبادة القوة المتبقية في المنطقة .. فكأننا التقينا على موعد » .

كان الإخوة العرب لا يزالون أسرى انفعالات المعارك الماضية وحماسة الموقعة المنتظرة التالية .. حينما بدأ العدو بإرسال طائراته المقاتلة على ارتفاعات شاهقة منذ منتصف رمضان تقريباً وبشكل يومي لاستطلاع المنطقة وتحديد مراكز المجاهدين فيها من خلال تتبع مصادر إطلاق النار على الطائرات .. لكن المعلومات التي حصلت عليها الطائرات لم تكن كافية – كما يبدو – بعد أكثر من أسبوع على مهمتها .. ربما لارتفاعها الشاهق ولتوفر إمكانيات التمويه الطبيعية فى المنطقة .. لذلك غيّروا الوسيلة .. وفوجئت مواقع المجاهدين عصر يوم الأربعاء – الثالث والعشرين من رمضان بطائرتين عموديتين تحوّمان على ارتفاع منخفض مفتّحتا الأبواب .. بما قد يوحى ربما بنيّتهما الإستسلام .. لكن مضادات المجاهدين إنطلقت باتجاههما .. فهوت

إحداهما .. وتمكنت الأخرى من العودة بالمعلومات المطلوبة على الأغلب (١) .

لم تصل للعرب فى المأسدة أخبار تقدم القوة قبل الرابع والعشرين من رمضان (٢) .. عن طريق المجاهدين بالطبع ، لكن بداية التحرك سبقت ذلك بأيام .. ففي الحادي والعشرين من رمضان (١٨/٥) أقلعت من « غرديز » عاصمة ولاية « باكتيا » طائرة عمودية تحمل بعض كبار الضباط متجهة إلى « تشاوني » .. لكن قذائف المجاهدين انصبت عليها فور أن اقتربت .. فهوت على الأرض وقتل كل من كان فيها ، وغلب الظن بعدئذ أن الطائرة كانت تقل هؤلاء الضباط لوضع بعض الترتيبات الخاصة بالمعركة القادمة (٣) .. وفى اليوم التالي كان آخر تجمع للقوة فى « غرديز » حيث تجمعت ثلاث فرق : فرقة ثمانية « قرغه » ولاية « كابل » وفرقة ١٤ ولاية « غزني » وفرقة ١٢ « غرديز » ولاية « باكتيا » إضافة إلى خمس كتائب روسية منها كتيبة « كوماندز » .. إضافة إلى قطع متفرقة من سلاح المدرعات .. وقوة من المخابرات الأفغانية « خاد » وقوة من الشرطة المدنية .. وقوة من المليشيا (٤) ولم تلبث القوة أن تحركت على مدى الأيام المقبلة باتجاه « تشاوني » لتقع في الخامس والعشرين من رمضان في كمين للمجاهدين في منطقة « نارَيْ » أوقع فيها ما يقارب الثمانين قتيلاً واحترقت ١٢ سيارة (٥) .. ولكن القوة تمكنت من متابعة طريقها لتبلغ قلعة « تشاوني » حيث سينطلق من هناك الهجوم .

مساء الجمعة .. الخامس والعشرين من رمضان بدأت مقدمات الهجوم الذي بات وشيكاً .. وأكيداً ، حينما انطلقت راجمات صواريخ العدو وهاوناته ومدافع دباباته وطائراته تقصف المنطقة المحيطة بالطريق الذي ستمر منه القافلة لمنع المجاهدين من التعرض لها (٦) .. لكن البداية الحقيقية كانت فى الأيام التالية .. يقول الأخ البتّال : « كنا نعدّ الإفطار فى (غرفة الطائف) وكان أكثر الإخوة منتشرين في الموقع فأتتنا أول ما أتتنا قذيفة هاون في الخلف ، سمعنا صوت انفجارها لكننا لم نتأكد من موقعها .. بعد قليل توالت أربعة أو خمسة انفجارات مباشرة .. لو كانت (غرفة الطائف) مرتفعة مترين فقط لأتت القذائف فيها حتماً ! ولم يلبث الأمير أن طلب منا أن نتوزع .. وبدأ القصف يشتد لكن أحداً لم يصب بفضل الله ، وكان ذلك أول أيام القصف ٢٦ أو ٢٧ رمضان .. » وطوال تلك الليلة – ليلة السابع والعشرين من رمضان – كان رمي العدو بالمدفعية والصواريخ عشوائياً .. ما ترك قمة ولا وادياً إلا ووصل إليه .. وبزغ فجر اليوم السابع والعشرين ولم ينقطع القصف ، وكان النصيب الأكبر منه ينصبّ على مأسدة الأنصار ، ليستمر صباحاً بتركيز شديد ، فيما بدأت راجمات صواريخ المجاهدين « بي . إم . » بالرد المكثف على مواقع القوات المعادية وعلى تجمعات آلياتها ومدرعاتها ودباباتها (٧) .. ومع اشتداد القصف في اليوم التالي (٢٨ رمضان) وعندما أدرك الأخوة العرب فى المأسدة أنهم مستهدفون أمر أبو عبيدة غالبية الموجودين فيها بالعودة إلي العرين .. تخفيفاً من احتشادٍ لا معنى له ضمن نقطة محدودة مستهدفة . يقول أبو عبيدة : « قبل مجيئ القوات حصل قصف

رهيب بالصواريخ الكبيرة وبالطيران على المأسدة ، فعرفنا أننا مستهدفون ، وكان عددنا أكثر من سبعين بل ربما أكثر من مائة فكان لابد من تخفيف القوات الموجودة حتي لا يُقتل أحد بدون داعى .. وبالفعل أرجعنا أكثر من نصف الإخوة يوم ٢٨ رمضان ليلاً إلى العرين مع أن الضرب كان مستمراً فى الليل أيضاً .. ولم يتبق فى المأسدة صباح ٢٩رمضان إلا ٢٥ أخاً تقريباً ، وهو اليوم الذي اشتبكنا فيه مع العدو .. » .

لم يكن العدو الذي اعتاد مهاجمة المراكز الحدودية للمجاهدين سنوياً فى مثل هذا الوقت بعيداً عن معرفة الوجود العربي المتزايد فيها .. بل إن واحداً من أبرز أهداف هذه الحملة الجديدة على المنطقة كان – مثلما نقل أبوعبيدة وأبومحمود عن ضابط إشارة أسره المجاهدون وحققوا معه – « القضاء على مركز العرب الذي كان يضايقهم كالمخرز فى أعين الشيطان ! » .. لكن الأمر الذي لم تحسب القوات الروسية والأفغانية حسابه ولم تقدّر – مثلما لم يكن أحد من المجاهدين الأفغان أو العرب يقدّر كما ينبغي دوره وأهميته – كان في تحقيق الوجود العربي على هذه الرقعة الجبلية المتقدمة تفوقاً ما اعتادت القوات المعادية في كل هجماتها السابقة حدوثه .. أو تمكن المجاهدين منه ، في الترصد والمراقبة .. وفى المبادرة – من ثمّ – بقرارات الدفاع المتبصّر الواعي .. لا البقاء – كما حدث في معارك السنوات الماضية – تحت رحمة الظنون والتقديرات العشوائية ، والإنغلاق على دوائر مشاهدةٍ محدودةٍ لساحة العمليات . يقول أبو حفص : « فى كل سنة مضت كانت القوة تهاجم هذه المنطقة .. وكانت إشاعات بعض المنافقين والمرجفين تخرج معها وتنتشر بتدبير منها : القوة هنا .. هنا .. لا هنا .. فالأحزاب لم تكن تتابع الموقف أو تعرف ما الذي يحد بدقة ، ولذلك كانت معنويات المجاهدين تنهار وينسحبوا .. وتشن القوة حملتها التأديبية بنجاح وتستولي على بعض المواقع .. ثم تعود مرة أخرى ، أما فى هذه المرة فكانت نقاط إنذارنا الإثنتين تعطيانا الموقف أولاً بأول .. الأولى : فوق (قباء) والثانية : أسفل (بدر) وهذا ساعدنا كثيراً جداً جداً على التعامل مع المتغيرات .. » وفي هذا الصدد يقول أبوعبدالله أيضاً : « قدّر الله سبحانه وتعالى أن يكون موقع المأسدة هو أول نقطة باتجاه العدو وأول معسكر فى مواجهته ، وكان لهذا إيجابيات وسلبيات ، أما إيجابياته فكنا نرصد جميع تحركات الأعداء ، سواءاً بالمعدات الثقيلة أو بالأفراد ، وكنا بذلك عيناً لعموم المجاهدين والأحزاب المتواجدة فى المنطقة ، ومن فضل الله كنا نخبرهم بواسطة أجهزة اللاسلكي بتحركات العدو وبالوقت المناسب للضرب عندما يتقدم لمسافة تصلها كل أسلحة المجاهدين .. إلا أن وجودنا كأول معسكر باتجاه العدو جعله يركز ضرباته الشديدة علينا بشكل جنوني في مسعى منه لكسر أول نقطة للمقاومة حتى يحطم معنويات المعسكرات الأخرى وينشر الرعب والذهول فيهم ، ويأخذ بالتالى – إذا ارتقى جبل المأسدة – مفتاح المنطقة التي وراءها حتى يصل إلى الطريق الأساسي لإمداد جميع المجاهدين فى تلك المناطق ، وهو أهم طريق لدخول المدد إلى داخل أفغانستان .. » .

* * *

صباح التاسع والعشرين من رمضان ، كان العمل مستمراً فى تحصين مواقع المأسدة المختلفة وتهيئتها لاستقبال الهجوم الذي بات وشيكاً ، فى الوقت الذي استمر القصف المعادي يطال السلسلة الجبلية الممتدة من واجهة المأسدة وحتى مراكز المجاهدين الخلفية قرب الحدود مع الباكستان ، ويُعيد العصر .. وفي الوقت الذي تميل الشمس فيه إلى جهة الغرب – حيث تتمركز القوة في « تشاوني » – فتعيق المجاهدين – كما يُفترض – عن رؤية تحركات العدو بوضوح .. تحركت آليات القوة ومشاتها عبر الوادي السيلي باتجاه المراكز الحكومية المتتالية على امتداده حيث تبدأ بُعيد ذلك « أرض المجاهدين .. » لكن رصد الإخوة العرب في « قباء » التى ترتفع فوق المأسدة لأكثر من مئة متر .. وتطل على الوادي الذي تتقدم فيه القوة بارتفاع يجاوز المائتي متر ويزيد .. كان كافياً ليسجل أولى تحركات للعدو .. علاوة على موقع الرصد الآخر تحت « بدر » حيث يكشف الوادي وعدداً من بوستات العدو المنتشرة عليه ، وسرعان ما وصلت الإشارة الى غرفة قيادة المأسدة حيث استلم أبو محمود مسؤولية الإتصالات اللاسلكية ، وبلّغ النبأ من فوره لأبي عبدالله وأبي عبيدة والشيخ سياف .. وعاد فتلقى أمر أبي عبيدة لعبد الرحمن الذي كان على راجمة الصواريخ (بي . إم . ١٢) وعلى الهاونات ينتظر الأمر بالإطلاق :

– من ٢١ إلى واحد .. هل تسمعني أجب ؟

– أسمعك جيداً . أجب .

– الموقف يتطلب أكثر من راجمة للصواريخ . أعتقد أن الدبابات تقدمت .

– نحن بأمرك . نعطي الأوامر لعبد الرحمن ليبدأ ؟

– الآن الجبال من عندنا حالت بيننا وبين الرؤية .

– إيش رأيك أتصرف أنا ؟

– عندنا إثنين راجمة صواريخ أم واحدة ؟

– نعم عندنا راجمة ثانية . ما أدري أين موضوعة . القومندان يعرف أين . وعندنا ٥٠ مرمي داخل الديبو . ووصلني ١٢٠ إلى قومندان عبدالسميع فماذا تريدني أن أتصرف ؟

– .. تزود المرمي عندنا عشان بدأت الدبابات تتقدم . وتكلم الشيخ يُرجِع عندنا راجمة وصواريخ كثيرة إن شاء الله .

– الآن . أبشر .

كان ذلك فاتحة الحوار اللاسلكي المسجل بين أبي عبيدة في موقع الترصد وأبى محمود في « القيادة »[٨] .. ومن فوره تحوّل أبو محمود بالنداء إلى المخازن الخلفية فى العرين على رقم إثنين وإلى مركز الشيخ سياف على رقم خمسة وإلى « قباء » .. فأتاه الردّ الأول من « قباء » :

– خرجت الدبابات من القرية قبل قليل وهي متجهة إلى هنا .. وأطلقت قذائف .

.. ولم يطل بالأخوة الأمر .. فالعدو في حركة متسارعة نحوهم وقد أصبح فى مدى راجماتهم (التى تبلغ تسعة كيلو مترات) وما لبث القصف أن بدأ بـ « هدايا » متفرقة لتصحيح الرصد وتسديد الزوايا .. في الوقت الذي اتصل أبو محمود مع الشيخ سياف فى غُنْده .. واستأذنه – باسم أبي عبد الله – أن يستلم الإخوة العرب الراجمة الأخرى من الأفغان ، وطلب مرة بعد مرة أن يرسل إليه « مع أقرب دابة قادمة بعض البرسيم »[٩] .. وبعد نصف ساعة أكد أبومحمود على الأخ خالد – في مركز الشيخ سياف – أن يبدأوا باستعمال الراجمة بعيدة المدى من المركز على بوستات العدو وعلى القوة المتقدمة التى بلغت خمسين سيارة تقريباً وأصبحت بين « علي خيل » و « باني خيل » .. عدا عن ثماني دبابات كانت قد تقدمتها .. وتلتها ثمان أخر – كما أفاد رصد « قباء » – .. وبعد ما صحح أبو عبيدة للراجمات وللهاونات طلب من الجميع التجّهز لتلقي أمر البدء بالقصف .. بانتظار أن يصحح لقذائف الشيخ سياف الأولى .. لينطلق الجميع مشتركين .. فيما كان أبوعبد الله يتابع من غرفةٍ تحت « موقع الزيكوياك » محادثات الأطراف جميعاً ويشارك في التصحيح والتسديد وفي الإشارة بالرأي .. ولم تلبث القذيفة الأولى التي انطلقت من مركز الشيخ سياف أن سقطت علي مركز « النايمة » ووصل إلى أبي محمود – وبجانبه الشيخ تميم الذي وصل قبل دقائق إلى المأسدة قادماً من غند سياف .. – وصل صوت أبى عبيده من موقعه في الترصد يقول : « الضربة التي ضربت على (النايمة) توجد إصابات بين الجنود .. » وتتعالى التكبيرات من الإخوة تنقلها أجهزة اللاسلكي إلى أبعد مدى .. ومرة أخرى يرسل عبد الرحمن من مركز عبدالسميع ١٢ قذيفة من راجمته .. فينادي « قباء » : « السيارات تهرب من أمام (أم الخنادق) .. السيارات تهرب .. علم ؟ » ويصدر أبو عبيدة الأمر للهاونات أن تبدأ أيضاً ، في الوقت الذي يشتد الرمي المعادي على المأسدة ويرصد أبوعبد الله من موقعه طائرة هليوكبتر تقترب من المكان .. فيأمر بتحضير (الأر . بي . جي) إستعداداً للرمي عليها .. وكذلك (الستكا) ، وتعود صواريخ عبدالرحمن الإثنتى عشر تنطلق مرة بعد مرة .. ويصيح أبوعبيدة من مرصده : « الله أكبر .. الضرب ممتاز .. ممتاز .. ممتاز » ويعلو التكبير .. ويأمر أبو عبيدة الهاونات بالبدء ثانية .. ويعود صوته عبر الجهاز يقول : « ما شاء الله . ما شاء الله . ممتاز . ممتاز » ويعود التكبير .. ويسأل أبوعبيدة : « الهليوكبتر أين إتجاهها الآن ؟ » فيجيب أبوعبد الله : « كانت تحوم حول (سيد خان) ولانراها الآن .. » ثم لا يلبث أن يقول بعد دقائق : « إنها عادت » وبدوره يلحظها أبوعبيدة فينادي بالأخوة عبر الجهاز : « الطائرة كاشفة ولاداعي للحركة . التصوير دقيق .. » ومع اشتداد القصف يأتي صوت أبي عبد الله ثانية عبر الجهاز

: « إدّرعوا بالأرض . بدأوا بضرب تأسيسي على السفح ... يبدو أن ضرب عبدالسميع آذاهم فهم يردون بشدة . عُلم ؟ » ومن جانبه ينادي أبوعبيدة على عبد الرحمن ليجهز راجمته لأن هذا الضرب حتى تستطيع القافلة أن تسير .. ويعود أبوعبد الله ينادي : « على جميع المراكز أن يدّرعوا جيداً من هذا القصف . لأن القصف تمشيط للمركز . عُلم ؟ » .. ويستمر قصف العدو لفترة ولكن صواريخ المجاهدين الأفغان والعرب وقذائفهم لا تتوقف .. وبُعيد الساعة السادسة يصل أبوعبد الله إلى غرفة القيادة ليصلي العصر ، ولا يلبث أن يصل صوت أبي عبيدة من مرصده : « ضربة (البى . إم . يك) من الشيخ جاءت في القيادة بالضبط » .. وبعد دقائق يعود صوت أبى عبدالله يأتي من مرصد آخر عبر الجهاز ينادي : « أبو عبيدة .لعلك ترى بعض الجنود يمشون على يمين (أم الخنادق) في الطريق .. » لكن أبا حفص هو الذي يتولى الإجابة هذه المرة – بعدما ذهب أبوعبيدة للصلاة فيوجه القواذف ويصحح الرمي .. وفيما يقترب الوقت من الغروب يرسل الشيخ تميم الذي استلم جهاز المخابرة تقريراً عن آخر الأوضاع إلى مركز الشيخ سياف يقول فيه : « كانت هناك بعض السيارات المتقدمة نحو البوستات . وحصل ضرب مباشر أمامها واضطرت للتراجع . الضرب جاء على الطريق فتراجعت بعض السيارات .. وبعض السيارات دخلت . عُلم ؟ » .

ويُجمل أبوعبيدة محصلة التراشق الصاروخي ذلك اليوم والحال التي انتهت اليه القوة وقد حلّ المساء .. ويقول : « كان الإخوة موفقين في ذلك اليوم والحمد لله .. وعلى مرأى ومسمع منهم كانت الدبابات والسيارات تهرب في كل مكان ، وحدث هرج ومرج شديد بين الجنود ، ورأينا سيارات الإسعاف تأخذ من العساكر ثم تنسحب مرة أخرى إلى (تشاوني) .. وكانت القذائف تلاحقهم حتى الغروب .. حينما توقفوا وراء الجبال بانتظار حلول الليل .. لتنزل القوات التي لم تنسحب إلى (تشاوني) متسللة إلى المراكز .. والحمدلله – وكما روى الأسرى بعد ذلك – فإن الجنود والروس عندما نزلوا من السيارات وأرادوا دخول مراكز العدو مشوا على الألغام التي زرعها جنود الحكومة أنفسهم حول البوستات ، فأصيب وقتل الكثير منهم والحمدلله » وفيما لم يصب من الإخوة العرب طوال الأيام الماضية أحد – بفضل الله – ورغم اشتداد القصف وتركيزه على المأسدة ، فإن يوم التاسع والعشرين من رمضان شهد استشهاد الرائد عبدالوهاب ، المسؤول العسكرى لولاية (جاجي) لدى تنظيم الإتحاد ، على أرض المأسدة نفسها .. حينما سقط بجواره أحد الصواريخ المعادية .. فاستشهد في الحال (١٠)

كانت الأمور لا تزال صبيحة الثلاثين من رمضان هادئة فى ظاهرها بعد عدة أيام من ابتداء تقدم القوة نحو (جاجي) .. وفي الوقت الذي كان الكوماندز السوفييت يتحركون باتجاه المأسدة معتمدين على خبرة تخصصية لا تضاهى ، وكثافة نارية لا تجارى .. كان أبوعبيدة يتحرك من موقع غرفة « المتقدمة » نحو غرفة « بدر » في الطرف المقابل من المأسدة لملاقاة أبي عبدالله .. يقول أبوعبيدة : « كان أكثر الإخوة

مستنفرين طوال الليل وقلقين يحسون أن هجوما وشيكاً بات قريباً منهم .. وأما أنا فكنت في (المتقدمة) خلال الأيام الأخيرة باعتبارها أقرب موقع للعدو ولا بد أن أبقى مع الإخوة هناك .. بينما نام أبو عبد الله ليلته تلك في (بدر) .. أي على طرفي التماس مع العدو ، فتقابلنا الساعة السادسة صباحاً وهو قادم إلى (المتقدمة) فقلت له : سأنزل بجولة سريعة على الإخوة .. وأنا أمشي سمعت أخانا أحمد شاه ترصّد (بدر) يقول : هناك قوات بدأت تصعد طريق (أم الخنادق) على جناح (عبد السميع) .. فلما أردت التأكد رأيت القوات طالعة بالفعل .. عشرة عشرة عشرة .. يتقدمهم عنصر ترصد واستطلاع ، وكان الإتفاق بيننا أن صاحب (الزيكوياك) إذا حصل هجوم على المأسدة أن يضرب ثلاث دفعات من مدفعه فتكون هذه إشارة استنفار للجميع .. وأن هناك خطر داهم على المركز ، فالحمد لله إتصلت بالأخ لاسلكياً وقلت له : هناك إنزال من بعض طائرات الهليوكبتر على ميسرة المأسدة فوق التباب على امتداد (أم الخنادق) .. فأطلق ثلاث صليات ، لكن الإخوة من شدة التعب لم يكونوا قادرين أن يصحوا .. لدرجة أنني قلت لأحدهم بنفسي : هناك روس .. وهو لا يستطيع النهوض من التعب ! لكننا والحمد لله بدأنا ننظم صفوفنا من جديد .. وأصبح الإخوة كلهم فى حالة الإستعداد القصوى .. » .

من موقعه فوق جبل « قباء » كانت الصورة لأبى زياد المكي هناك أوضح .. وأشمل .. وسرعان مالحظ اشتراك طائرات الهليوكبتر فى إنزال مجموعات الكوماندز السوفييت على التلال المؤدية إلى المأسدة قبل أن يتقدموا عليها راجلين متتابعين . يقول أبو محمود حيث كان لايزال فى غرفة القيادة يتولى مسؤولية المخابرة المركزية : « جاءنا من أبي زياد في (قباء) أن هناك تحركات مشاة باتجاه التلال الفاصلة بين البوستات والمأسدة .. كانت الطائرات تنزلهم على التلال البعيدة بجانب البوستات ثم يتقدمون بحركة سريعة نحونا .. وأمامهم تمهيد نيراني من الهاونات ومدافع (الهاوتزر) .. وفعلاً تم التنسيق ما بين (قباء) و (بدر) فى الرصد فتبين لـ (بدر) مباشرة أن المشاة روس : أشخاص حمر .. طوال .. تنزلهم الطائرات بيننا وبين (أم الخنادق) مكان العملية التى كنا بدأناها فى شعبان الماضي .. لكن وللأسف لم يكن هناك مجاهدون في هذه اللحظات .. وتمكنوا من التقدم مباشرة حوالي ٢ كم دون أي مقاومة » ! ومن جانبه يزيد الأخ حمزة فيقول : « كنت مع أبي عبد الله حينما اشتد القصف علينا ، وإذْ بالطائرات على ميسرة المأسدة مقابل (المتقدمة) تُنزل مجموعات الجنود .. أظنها أربع طائرات ، لكنها كانت بعيدة عنا فلم يحدث اشتباك بيننا وبينهم ، ولكن أعتقد بأن أحداً كان يقصف عليهم بالهاون [١١] .. وقتها كان أبو عبد الله قد طلب مني أن آتي ببعض الأغراض وألحق به إلى (المتقدمة) .. وعندما رجعت أصيب الأخ أبو برهان السورى – أخ آخر غير المدرب – والأخ عبد الحميد السوداني بشظايا هاونات في ظهورهم – وكانا على الخط الأول يحرسان خوفاً من الإلتفاف – فقمت أنا والأخ عبدالرحمن السعودي بنقلهم إلى الخلف ، وكان الدكتور صالح الليبي رحمه الله هناك فأجرى لهم علاجات وإسعافات أولية .. ثم نقلناهم إلى العرين .. ومن ثم إلى (برجنار) .. » .

أدرك أبوعبيدة – المسؤول العسكري عن المأسدة – أن اقتحاماً وشيكاً على المركز لابدّ وأن يحدث لو لم يبادر بإجراء وقائي مضاد .. وفي وضع كهذا لا يتواجد فى المأسدة كلها سوى بضع وعشرون من الإخوة العرب .. كان لابدّ وأن يكون الإجراء نوعياً .. وفاعلاً .. ومركزاً . يقول أبو عبيدة : « عندما رأيت مجموعات الكوماندز طالعة باتجاه(تبة عبدالسميع) قدّرت أنهم يريدون أن يصلوا إلينا .. فأنزلت مجموعة من الإخوة لعمل كمين لهم فى الأسفل بقيادة أبي حفص .. وعملنا تشكيل دفاع دائري حول المعسكر .. وكان عددنا ٢٥ تقريباً ، وأما أنا فرأيت أن أذهب إلى (تبة القيادة) جوار المأسدة بحوالي ٣٠٠ – ٤٠٠ متر أفقياً لنترصد من هناك على أساس أن لدينا طرفان للدفاع : (المتقدمة) و (الكمين) .. وبالفعل نظمنا أنفسنا ، ووقفنا أنا وأبو عبدالله ومعنا الأخ خضر وعثمان السعودى رحمه الله في (تبة القيادة) فكنت أشاهد القوات الصاعدة عشرة تِلْوَ عشرة يتحركون باتجاه موقع الإخوة في الكمين يتقدمهم دليل أفغاني من المنافقين .. لكن ومن كثافة الشجر اختفوا في منطقة معينة وما عدنا نستطيع مشاهدتهم .. فقلنا للهاون : إضرب فى هذا المكان .. لكننا ومع الضرب كنا نشعر بوجود كمية كبيرة منهم أسفل منا دون أن نراهم بالتحديد أو نعرف حجم الإصابات فيهم .. » ويتابع أبو عبيدة : « فجأة بدأ القصف على (تبة القيادة) التى نحن عليها .. قصف رهيب .. بتركيز شديد ودقة فائقة ، وبين الضربة والأخرى لا نستطيع أن نأخذ النفس ! عن يميننا وشمالنا ، ومن تحتنا وفوقنا ! حتى لم يعد بيننا وبين القذيفة سوى متر واحد ، لكننا وبفضل الله كنا متدارين بين صخرتين نحن الأربعة فوق رأس التبة وفي مكان مساحته أقل من متر واحد ! وكل منا جالس القرفصاء .. يتشهد ! ولا أعتقد أن أحداً من الناس الذين فى المأسدة كان يظن بقاء كائن حي في هذا المكان من كثافة الضرب ! فخلال نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة التي عشناها في هذا الوضع ، أُطلق علينا ٢٠٠ قذيفة على الأقل .. ويبدو أن بعض المجاهدين الأفغان أرادوا التدخل .. فما كاد ثلاثة أو أربعة منهم يصلون تحتنا حتى قُتل واحد منهم على الأقل أنا متأكد منه .. وربما يكونوا أكثر من واحد ، وقتها أبوعبد الله أخذ رأيي : ماذا نفعل ؟ فقلت له : لابدّ أن ننسحب من هذا المكان وبسرعة لأنه مستهدف .. فأصبحنا ننتظر ولو ربع دقيقة يسكتوا فيها لننسحب ، وبالفعل توقف الضرب لبرهة . فقلت : أنظرُ مرة أخرى على العدو بـ (الدربيل) فوجدت القوات لا تزال صاعدة .. ورأيت وأنا أنظر طلقة (كلاكوف) انطلقت بيني وبين أبي عبدالله .. مرّت – واللهِ – بين اللحية ودخلت فى الصخرة التى نحتمي بها .. وعادت فعملت شظية بسيطة لي فى الفك ! واستؤنف الضرب مرة أخرى ، ويبدو أنهم شاهدونا فعلموا أننا لا نزال أحياء فأعادوا القصف الفظيع هذا لربع ساعة أخرى .. سكنوا بعدها ما يقرب من نصف دقيقة ، فما كدنا نسرع بالهرب نحو (المتقدمة) بمقدار عشرة أمتار فقط حتى عاد الضرب من جديد لكننا بحمد الله وصلنا بسرعة ، وعندما إلتفتُ إلى (تبة القيادة) وجدتهم أصبحوا فوقها ، فظننت بادئ الأمر أنهم الإخوة المجاهدون ، فوقتها كانت مجموعة أفغانية

من الشيخ سياف وحكمتيار وصلوا المناسدة للدعم .. لم أكن لأتخيل أبداً أن العدو هو الذي طلع التبة بهذه السرعة .. خلال دقيقتين فقط ! إذاً هم كانوا بجانبنا !! وما تصورت هذه الدقة من التدريب : المشاة صاعدون وهؤلاء يضربون بالسلاح الثقيل ! مهارة عجيبة حقاً .. وأمر لا يمكن لعاقل أن ينفذه بهذه الطريقة .. » ويضيف أبوعبيدة : « فى الوقت الذي وصلنا فيه (المتقدمة) كانت مجموعة من المجاهدين الأفغان قد وصلت أيضا من جماعة الشيخ سياف والشيخ قلب الدين ، حوالي ٣٠ - ٤٠ من كل جماعة .. وكان ذلك من العيوب الخطيرة برأيي .. صحيح أن الناس كلهم حمدوا ذلك لكنني ذممته ، لأن هؤلاء الذين وصلوا ليسوا من أهل المنطقة ، ولا يعرفون المكان .. وقياداتهم باتت متعددة .. عدا عن العرب ، وإذاً فالتنسيق بيننا وبينهم غير موجود ، والعمل معهم سيكون صعباً »[١٢].. وفى المقابل تتقدم علينا مجموعات من الكوماندوز الروس المنظمين ، لو عرفوا حقيقة حالنا لجروا نحونا جرياً ! لكن العدو كان قد أصبح على قمة (القيادة) وكنت متفقاً مع أخينا سيف الله على (الجرينوف) أنه إذا سمع مني الأمر يضرب على طول ، فلما نظرت مرة أخرى إلى (تبة القيادة) بالمنظار لأتأكد وجدتهم جنود كوماندوز يلبسون الخوذ ويمشون بشكل عادي جداً هناك إعتقاداً منهم أن الأمور انتهت بعد كل هذا القصف العنيف .. فقلت لأخينا : إضرب على القمة فوراً .. لكنه لم يضرب ! إضرب : لم يضرب ! إضرب : لم يضرب !! فظننت أن هنالك شيء .. وعلى الفور بدأت الضرب بـ (الكلاشنكوف) .. فما أن رأني الإخوة كذلك حتى فتحوا النار جميعاً وألحقوها بـ (الآر . بي . جي) .. أما الإخوة الأفغان الذين وصلوا فـ (ناراي تكبير) ولا توصيهم بشيء بعدها ! وبأعيننا هذه رأينا واحداً منهم سقط .. تبعه قتيل آخر .. وسارعوا من فورهم بالإنسحاب للخلف .. فيما كان الإخوة من جانبنا مستمرون فى الإطلاق .. وكان الأخ خضر يحمل (الآر . بي . جي) على كتفه وهو ينشد الأناشيد .. ويضرب ! فكلما نظرت إليه أراه يغني ! أما الأخ الذي كان على (الجرينوف) فعلمت بعدها أنه كان قد جهّز طلقة بالفعل فى بيت النار استعداداً للإطلاق فور أن يصله الأمر ، لكن الأخ الذي أتى بعده خاف أن يصاب أحد خطأ فسحب الطلقة ، ولذلك داس على الزناد بالفعل لما طلبت منه الرماية لكن شيئاً لم يخرج ! وقتها أحسست أن هناك هرج ومرج عظيم .. لا يوجد تنظيم بالمرة ! وإذا كان الواحد يستطيع أن يتحكم في أفراده وإخوانه الذين معه ، إلا أن الإخوة الجدد الأفغان كانوا يسمعون كلام قادتهم لا كلامي ، فلقد كان واضحاً أن العدو الذي أحس بوجود مقاومة في هذا المكان سيحوّل قوته النارية عليه حتماً ، ولذلك نصحت الجميع بالنزول أكثر من مرة ، وكان معي أخونا عثمان - الذي بُترت رجله أخيرا - ومنصور رحمه الله الذي كان يضرب على الهاونات ، فقلت لهما : تعالا ننزل إلى داخل الغرفة لنفكر جيداً .. وكان أبوعبد الله معنا حتى ذلك الوقت على الهاون في (المتقدمة) مع منصور .. بيني وبينه ١٥ متراً فقط .. وقلت للإخوة الأفغان والعرب : إحرسوا الخندق جميعاً ولا يبقى منكم إلا واحداً أو اثنين للترصد لأن الضرب سيبدأ علينا الآن .. فاستجاب العرب والحمد لله وبعض الأفغان ، ولم تمر ثانيتين أو ثلاث وأنا تحت إلا وأسمع صوت قصف

رهيب – وكان توقعي في محله – تبعه صراخ من الأعلى ، فلما توقف الضرب قليلاً صعدت بسرعة فوجدت أربعة أو خمسة من الأفغان استشهدوا مكانهم : أحدهم جسمه مقسوم إلى نصفين .. شطره معلّق على شجرة قريبة .. ومعه (جرينوف) خفيف .. ولم يكن قد فارق الحياة برغم ذلك حتى وصلنا إليه .. أمام ذلك قررت أن أرجع بالناس قليلاً إلى الخلف .. إلى منتصف المأسدة ، وأنا فى طريقي إلى منتصف الساحة قابلت أبا عبد الله ثانية فأخذ رأيي : ماذا نفعل ؟ هل ننسحب ؟ وكان رأيه وقتها بالإنسحاب . واستدل بحالة سيدنا خالد في (مؤته) .. لكن القرار كان صعباً على نفسي فقلت له : نصبر ، دعنا نجهز الأشياء الثقيلة والعتاد الذي لدينا وننزلها أولاً ، وأما الأشخاص فليصبروا قليلاً .. لكنه رأى أن ينزل الناس أولاً ، وأما الأشياء الموجودة فنحاول أن ننزلها .. نحاول .. وقال : لابدّ أن ننسحب » .

* * *

فى هذه الأثناء كانت مجموعة الكمين التى نزلت بين الأحراش الملتفة أسفل المأسدة قد اقتربت جداً من أفراد العدو المتقدمين – بعدما تفقدتهم بادئ الأمر – حتى فكر أبو حفص بالإغارة عليهم قبل أن يتمكنوا من التمركز والإستحكام .. ولكن .. يقول أبوحفص : « نزلنا أمام المأسدة لنعمل بعض الكمائن في المنطقة وكنا تسعة أو عشرة بينهم الأخ عبدالرحمن صاحب الهاون ، والأخ محمد صلاح السوري ، وعبدالله المصري ، وبشير المصري ، وأبو عماد السوداني .. لكن كثافة الأشجار كانت مشكلة حقيقية ، فالمناطق الميتة كثيرة جداً ، ومدى الرؤية بات قصيراً جداً ، وعندما تقدمت بعض قوات المشاة كان الإخوة فى الأعلى يوجهوننا بواسطة أجهزة اللاسلكي ، فأخترت بعض الأماكن إستعداداً للكمائن ، لكنهم – ونتيجة هذه الكثافة من الأشجار – تقدموا من منطقة لم نرهم فيها ، واتجهوا إلى (تبة القيادة) التى كان عليها أبو عبيدة وأبو عبد الله وطلعوا عليها من الخلف .. ويبدو أنهم اكتشفوا وجود الإخوة فوقها فاتصلوا بمدفعيتهم لتبدأ بقصف الموقع قصفاً شديداً جداً إضافة إلى (المتقدمة) .. حتى إذا هدأ القصف قليلاً تمكن الإخوة من الإنسحاب عن (تبة القيادة) .. لتتقدم بعض قوات العدو ثانية ، فبدأ التعامل معهم من المأسدة بـ (الجرينوف) .. أمام ذلك اتجهوا لأسفل التبة ثانية من الجهة التي كنت أنا والمجموعة فيها .. فاشتبكنا معهم أيضا وحققنا فيهم خسائر أخرى .. فانسحبوا ثانية وعادت المدفعية تقصف على الإخوة فى (الغرفة المتقدمة) قصفاً شديداً .. فبدأ أبوعبد الله بسحب المجموعة من هناك .. فى هذا الوقت أرسلت أخوين من المجموعة التي معي هما الأخ بشير والأخ عبدالله المصرى – والإثنان قُتلا بعد ذلك – لعمل استطلاع للموقع من خلف (تبة القيادة) مرة أخرى .. فاقتربا جداً من العدو وأخبرانى بأنهم يحاولون حفر خنادق هناك .. وأنهم يتكلمون لغة يظنونها الروسية ، كما أعطياني تصوراً بأن عددهم لم يكن كبيراً فى البداية ، فاتصلت بالإخوة فى المأسدة وقلت لهم

: إننا نستطيع عمل التفاف عليهم من الجانب أو من الخلف .. ويفضل أن يكون ذلك الآن لأننا إذا تأخرنا يوماً آخر فسيتخندقوا ويتمركزوا – خاصة إذا كانوا روس – وسيكون طردهم من المنطقة مشكلة بعد ذلك ، لكن أبا عبد الله كان قد تشاور مع أبي عبيدة .. ثم تشاورا معي بقرار الانسحاب .. فالإخوة الذين كانوا معي كاد أن يُغمى عليهم عندما سمعوا خبر الإنسحاب ، لكن أبا عبدالله كان مصمماً .. فحاولت مع الإخوة كثيراً .. وبدأت أقنعهم أن الخير في طاعة الأمير .. ونفذنا الأمر .. ووصلنا المأسدة بعد العصر ومع اقتراب نهاية اليوم فوجدت مجموعة صغيرة جداً باقية من الإخوة ، وبعضهم انهارت معنوياته فبدأ يرمي سلاحه من الضيق ومن الحالة النفسية التي وصلوا اليها .. بينهم صخري وذبيح رحمهما الله .. أما أبوعبدالله فكان قد انسحب بأكثر الإخوة » .

* * *

فى غرفة القيادة على ميمنة المأسدة كان قد أُسقط بيد الشيخ تميم وفشل فى أن يشارك فى المعركة مباشرة لاعتبارات عديدة أهمها ثقل وزنه – رحمه الله – وبعدما استلم أبو محمود أمور المخابرة منذ فجر ذلك اليوم وجد الشيخ تميم نفسه بدون عمل .. فى ظرف ينطق من هوله الحجر .. وعلى رقعة من الأرض تبذل فيها المهج والأرواح .. فكان قراره المبادرة ولو بمفرده لطلب الشهادة .. واختلاق الظروف – ولو لم تكن مواتية – لنيل المنيّة فى سبيل الله ! يقول رحمه الله : « كنت قد سهرت طوال الليل على جهاز اللاسلكي ولم أنم إطلاقاً ، فلما أيقظت أبا محمود عند صلاة الفجر نمت ساعتين وأمسك هو الجهاز ، فلما استيقظت طلبت منه الجهاز ثانية فما أعطاني إيّاه وقال لي : أنا صاحي .. وبقى معه . ماذا أفعل ؟ طلبت من أسامة بن لادن جزاه الله خيراً أن أشارك في العمليات إلى الأمام فرفض أيضاً وقال لي : جسمك ثقيل ولا تستطيع . رجوته فأصر وقال : طاعة الأمير واجبة ، فاضطررت لطاعته .. وبدأت أسمع اصوات الإشتباكات والضرب ، وكنت أتمنى الشهادة فى هذا اليوم ، فخرجت الى شجرة بجانب (غرفة القيادة) فكتبت وصيتي .. وجلست أتلو من كتاب الله وأنا أنتظر الشهادة ، والقذائف والقنابل والهاونات تنزل حولي وبعضها لا ينفجر ، والشظايا تتطاير والدخان يملؤ المكان والطائرات ترمي – والله –والدبابات .. وأنا أقول : لعلها الشهادة فى رمضان .. آخر يوم فيه يا رب .. حتى تلوت سبعة أجزاء خلال أربع ساعات ونصف : من التاسعة والنصف تقريباً إلى الظهر أو ما بعد الظهر .. حتى الواحدة والنصف أو الثانية ، بعدها جاءت قذيفة طائرة قريبة جداً اهتز لها المكان واهتززت بنفسي .. فخرج أبو محمود من الغرفة في الأسفل يصيح : من أجل الله إنزل .. وهو يسحبني بالقوة خوفاً عليّ .. فنزلت ، ومن شدة التعب والإستمرار فى السهر نمت قليلاً .. وإذْ بأسامة بن لادن يوقظني وهو يقول : هيا .. إنسحاب كامل . كيف ؟ .. إنسحاب ؟! صرت أبكي وأشدّ شعر رأسي

ولحيتي وأقول له : ياشيخ إتق الله .. ماننسحب . شعرت بالخزي وقتها .. فكيف ننسحب والمأسدة نحن بنيناها بأكتافنا وعرقنا وتعبنا فيها حتى أصبحت من قلوبنا .. لكنه قال لي : أنت آثم إذا لم تنسحب ، وهؤلاء الشباب الذين فى السيارة كلهم فى رقبتك لو جاءت قذيفة هاون الآن وقتلتهم .. أنت مسؤول عنهم . فاضطررت أن أركب معهم لننزل تحت القصف الرهيب إلى العرين .. لكنني ازددت يقيناً من ذلك اليوم أن الانسان لا يموت قبل أجله » .

* * *

كان قرار الإنسحاب من المأسدة بمثابة المفاجأة للجميع .. فعلى مدار الشهور الماضية كان العرب المتواجدون فيها يُمنّون أنفسهم ببلوغ مثل هذا اليوم الذي يتصدون فيه لقوة العدو في موقع لم يعتد مواجهة المقاومة فيه .. ليحركوا فى مجاهدي المنطقة المبادرة بالتقدم على مراكز الشيوعيين ومواقعهم بدل انتظار قدوم القوة على مشارف معسكراتهم كما يحدث في كل عام .. وها هو اليوم المنتظر قد حلّ ، والمعركة لاتزال فى بدايتها ، والمواقع والإستحكامات والإمكانيات التي بين أيدي العرب غير قليلة .. فلماذا يكون الانسحاب ؟

يقول الأخ أبو محمود : « أعتقد أن التقدم السريع والمباشر للعدو شلّ حركة الإخوة خاصة في (المتقدمة) .. وعندما رآهم أبو عبد الله من هناك مصرّين على التقدم تراجع بالإخوة خوفاً على أرواحهم .. ثم ارتأى أن يكون الإنسحاب كاملاً من المأسدة .. » ويضيف الأخ أبوحفص : « عندما أَبْلَغَنَا الإخوة بقرار الإنسحاب ونحن لا نزال أسفل المأسدة فى الكمين أوّلت الأمر بأن هذه أول مواجهة لنا بهذا الحجم ، وأن شدة القصف مع قلة الخبرة جعلت أبا عبد الله يصمم بالفعل على الإنسحاب ، لكنني كنت أقارن وقتذاك بين القصف الذي يحدث هنا على المأسدة فى الأعلى والقصف الذي حدث في (جاور) من قبل فلا أرى هذا إلى ذاك شيئاً يُذكر ! » .. ومن جانبه يقول أبوعبيدة : « لم أكن فى داخلي مستريحاً لأمر الإنسحاب بالمرّة .. لأننا – أولاً – تعبنا فى هذه المأسدة تعباً يشهد عليه الله سبحانه . ثانياً : لو أن العدو تمكن من دخولها فستبقى له حصناً حصيناً وستكون شوكة في ظهر المجاهدين ، وسيصبح الطريق منها مفتوحاً أمامهم لو أحبوا أن يصلوا إلى بشاور بالدبابات ! وثالثاً : هذه أول معركة وأول محك كبير بين العرب والعدو ، والنصر فيها سيكون نقطة تحوّل رهيبة لصالح المنتصر لا يعلمه إلا الله .. لكن أباعبد الله أصرّ .. » ويتابع أبو محمود : « كان القرار بالانسحاب كالصاعقة على الإخوة .. وأنا ذهلت حقيقة حينما سمعته وقلت لأبي عبد الله : فلنتروَّ حتى نرتب الأمور .. نسحب الإخوة .. نسحب المواد على الأقل ، فصرخ بوجهى وتكلم معي كلاماً لم أسمعه منه من قبل .. وحينما قال الشيخ تميم : لا أريد أن أنسحب ، أمسكه من كتفه وسحبه إلى

السيارة التي امتلأت بالإخوة .. وقال : من كان يستطيع أن يمشي فليمشي بدون توقف ، وبالسلاح الفردي فقط ، ومن لا يستطيع المشي فليصعد إلى السيارة .. وأخيراً إقتنع أبو عبد الله أن ينسحب بالإخوة لألحق بهم أنا بعد أن يرحل الجميع بحكم موقعي على أجهزة الإتصال .. وفعلاً بدأ الأخوة ينسحبوا وكانوا حوالى ٤٥ أخاً ، وكانت أول تجربة من هذا النوع : القصف لم يتوقف لثلاثة أو أربعة أيام ، والروس على مشارف المأسدة ، والأمر أمرٌ بالإنسحاب .. » ويضيف أبومحمود : « بدأت الفوضى تدب بيننا .. في غرفة (بدر) قام أحد الإخوة الأفغان النشطين بتفجيرها حتى لا يغنم العدو شيئا .. أحرقوا موقع (الزيكوياك) فى الأعلى بعدما فككوا المدفع ودفنوا بعضه في الأرض ودحرجوا بقية معداته الثقيلة أسفل الوادي حتى لا يستخدمه العدو .. وكان لدينا غرفة أخرى فيها مواد غذائية قام الأخ أبوماهر السوري بإطلاق قذيفتي (آر . بي . جي) عليها .. أما غرفتي – غرفة (القيادة) أو غرفة (الإتصالات) أو (الضيافة) كما كنا نسميها أحياناً – فأصررت على ألا يفعلوا بها أي شيء من ذلك ، فقد كانت مليئة بالأجهزة وبالأسلحة الفردية .. عدا عن مستودع السلاح المليئ .. فبدأتُ والحمد لله بمساعدة بعض الإخوة فى تعبئة الأجهزة الكهربائية والإلكترونية والكاميرات والأسلحة الفردية .. فى بسترات النوم ذات السحاب ، وتحميلها على البغال نحو العرين ، ثم لما شحنت معظم المواد التي عندي إتصلت بالعرين وقلت للأخ أبى معاذ أن يرسل لي شاحنة لنفرّغ مستودع السلاح كله .. حيث لايزال أمامنا مجال لذلك .. وأثناء ذلك كان الإخوة فى غند الشيخ سياف وفي غند الفتح وفي العرين ينادون عليّ باللاسلكي وهم يتصورون أن المأسدة أخذت .. فلا أرد عليهم فى ربكة الأحداث .. إلى أن ناداني (قباء) يقول : أرجوك يا أبا محمود أن تردّ على القيادة .. يريدونك . فعرفت أنهم مصرون على الإنسحاب .. وقتها كان الأخ أبوعبيدة وأبو حفص في حيرة لا يستطيعان اتخاذ قرار فقلت لهم : ياجماعة .. نحن لدينا الإمكانيات لمقاتلة العدو عن قرب برشاشاتنا الخفيفة وننسحب إذا استدعى الأمر عبر المناطق الجبلية المشجّرة ، فلنفرغ السلاح الآن وبعدها نمشي ، فوافقانى على ذلك ، وعندما اتصل الشيخ سياف واتصل أبوعبد الله يريدون أن نعطيهم آخر الأخبار قال أبو عبيدة : ما زال هناك مجال وعندنا سعة ، والعدو لايزال بعيداً .. ومع الغروب كنا قد أفرغنا السلاح والذخائر فى الشاحنة .. فأرسلناها وأرسلنا معها أربعة إخوة عرب بينهم الأخ عثمان المصرى ، وكانت قذيفة دبابة قد جاءتنا قبل الغروب بساعة فخرج الدم من أذنيه بسببها ، فأرسلناه ليستريح معهم .. وبقينا وقتذاك تسعة عرب فى المأسدة : أبوالفضل المصري الذى استشهد رحمه الله وكان يحفظ كتاب الله ، أبوسهل ، أبوعبيدة ، أبوحفص ، العبد الفقير ، خالد الكردي .. فلما دخل علينا المغرب والأفغان معتادون ألا يحدث تقدم للعدو في الليل ، إتصلنا بالشيخ سياف وقلنا له : هناك سعة ، وسنجلس هنا إلى آخر لحظة .. وأخبرنا المشايخ بذلك فقالوا أخيراً : لا بأس ، إذا كنتم ترون أن جلوسكم مناسب فاجلسوا . وزاد الشيخ سياف فأخبرنا بأنه سيرسل لنا مجاهدين أفغان ليجلسوا معنا ، وأعطانا أبو عبدا لله أمراً بأن نتوزع وسط المعسكر وننام على تبة هناك تطل نوعاً ما على جميع أطراف

المركز ، وكان الإعياء قد دبّ فينا ونحن ثلاثة أو أربعة صائمين ، فمضيت أنا وأبو عبيدة لننام .. ومضى بعض الإخوة ليحاول تدبير طعام بعدما احترق المخزن وتوزع ما فيه .. وقبل أن ندخل غرفتنا وجدنا ١٠ - ١٥ أخاً من مجموعة القومندان (كوتشاي) بقيادة أخيه لايزالون فى المأسدة يتناولون الطعام فاطمأننا على أن وسط المعسكر مؤمّن والحمد لله ، وأخبرناهم بأننا باقون أيضاً .. وأتانا إتصال أخير من الشيخ سياف قال لنا إنه سيرسل قادة المنطقة لينامو عندنا أيضاً .. وبعدها لم أعد أحس بشيء ! » .

.. ومن جهته يتابع أبوعبيدة تفاصيل الأحداث التي انتهيت إليها آخر أيام رمضان في المأسدة - ويقول : « أرجع الإخوة جميع الأسلحة والذخائر تقريباً ولم يعد هناك إلا أسلحتنا الفردية .. وقتذاك كان العدو قد وصل (تبة القيادة) واحتلها واستحكم فيها من الخلف .. فاتصلت بالإخوة في العرين وقلت لهم : سأبقى مع من بقي من الإخوة لعلنا نصدّ هؤلاء إذا حاولوا التقدم والهجوم . قالوا : سوف نتشاور .. وبعد فترة طويلة كأنهم وافقوا على مضض ، فبقينا نحن التسعة ومجموعة من الإخوة الأفغان ، ولم يكن بيننا وبين الكوماندوز إلا ٣٠٠ -٤٠٠ متر ، ولو أنهم علموا مابداخل هذه المأسدة من أفراد لدخلوها جرياً بدون أسلحة ! لكن الفضل والمنّة من قبل ومن بعد لله سبحانه » ويضيف أبوعبيدة : « فى الساعة الثانية عشرة وأنا فى تعب شديد جاءتنا مجموعة من الأفغان يسألون : هل سنكمل أم سننسحب ؟ وكان بينهم كومندان - ماشاء الله لا قوة إلا بالله - كان مصراً على الإستمرار بأي طريقة .. فارتفعت المعنويات قليلاً .. وبعد مناقشات طويلة استمرت ساعة تقريباً قلنا نستمر بفضل الله ، وفى نفس الوقت كان أبوعبد الله قد اتصل بنا في الليل وقال بأنه سيرسل لنا مجموعة من الإخوة .. وصلوا بالفعل قرابة الواحدة وكانوا حوالى ١٥ أخاً تقريباً .. فازددنا ولله الحمد اطمئناناً تلك الليلة .. » .

* * *

.. وفى تلك الليلة كان الجدل على أشده في معسكر الشيخ سياف بـ « جاجي » بين مؤيدى الإستمرار فى الدفاع عن المأسدة وبين المشفقين على أرواح إخوانهم والمؤيدين للإنسحاب .. يقول الأخ أبو الحسن المدني : « ليلة العيد كان الإخوة قد وصلوا كلهم إلى معسكر الشيخ سياف ، وكان القرار : هل يتم الإنسحاب أم لا يتم ؟ . كان بعض الإخوة الذين يغلب عليهم الحماس يرفضون الفكرة ، بينما كان رأي الإخوة الذين يحاولون تقليل الخسائر ومالهم سابق تجربة بالمعارك .. الإنسحاب . لكن رأي الشيخ سياف كان هو الفيصل فى الموضوع حيث قال : لا بدّ وأن نخوض هذه المعركة وألا نتراجع عن المأسدة لأنها الخط

الأول هناك ، ومهما دفعنا من تضحيات فهي أرخص جداً من سقوط المعسكر وسيطرتهم على طريق القوافل . ولأول مرة وجدنا الشيخ سياف يعامل الأخ العربى كما يعامل الأفغان ، وعلى العكس كان يطالب بإرسال إخوة منا كقوة تعزيزية لإخوانهم الموجودين في المأسدة .. وبالفعل ذهب على رأس هؤلاء شفيق ومعه مهند وإخوة آخرون حرسوا المأسدة فى تلك الليلة » .. ويضيف أبومحمود : « خلال الليل كان أبوعبد الله جزاه الله خيراً قد أرسل إلينا مجموعتين من الإخوة العرب : شفيق ومجموعة ، وحمزة ومجموعة حوالي ١٥ أخاً وصلوا في الواحدة ليلاً ، إنتشرت الأولى في وسط المعسكر والأخرى على تبة (الزيكوياك) .. وفي وسط الليل فوجئت بقادة (جاجي) الميدانيين كلهم من جماعة الشيخ سياف حولي أيضاً .. نحن نائمون فى الغرفة لا نحس بشيء وهم جالسون ينظرون إلينا ! سألتهم : هل تتسحروا ؟ قالوا لي : نَمْ يا أبا محمود اليوم عيد .. فاطمأننت ونمت ! » أما الأخ حمزة فبعدما نقل الجرحى ظهر ذلك اليوم من « المتقدمة » إلى العرين .. فـ « برجنار » عاد إلى العرين ثانية ليجد أبا عبد الله قد انسحب بأكثر الأخوة ثم عاد واتخذ قرار الرجوع لدعم من تبقى فى المأسدة .. ويقول : « بعدما رجعت من (برجنار) قابلت أبا عبد الله فقال : جهزوا أنفسكم حتى ترجعوا إن شاء الله إلى المأسدة ، وبالفعل جهزنا أسلحتنا وذخائرنا وتحركنا فى الليل أنا والأخ مهند وشفيق رحمه الله مع بقية الإخوة ، لكن شدة القصف جعلتنا نترك السيارة في الطريق ونكمل مشياً .. وحينما وصلنا وجدنا المعسكر مقلوب على آخره ! حتى أننا ضيّعنا بعض الدروب فيه من كثرة القصف الذي نزل هناك .. وأخيراً وصلنا (مركز المتوسطة) وأخذنا استراحة فيه الى الصباح » .

هوامش

(١) أنظر : مجلة «الجهاد » – العدد ٣١ – شوال ١٤٠٧ – يونو ١٩٨٧ – صـ٢٩ وصحيفة « الثبات » – العدد ٢٧ – ٣٠ شعبان ١٤١٠ – ٢٧ مارس ١٩٩٠ – صـ٦ – لكن أياً من المصدرين لم يشر لمكان سقوط الطائرة أو الجهة التي أسقطتها بالتحديد .

(٢) ينفرد الأخ أبو الرضا فيذكر أن ضابط المخابرات الأفغانية « خاد » الذي سلمه الجنود الأفغان الذين استسلموا للمجاهدين قبل فترة قصيرة سألوه متى ستأتي القوة ؟ قال : في العيد !

(٣) أنظر : مجلة « البنيان المرصوص » – العدد ١٤ – ذو القعدة ١٤٠٧ – يوليو ١٩٨٧ – صـ١١ وصحيفة « الثبات » – العدد ٢٨ – ٨ رمضان ١٤١٠ – ٣ ابريل ١٩٩٠ – صـ٦

(٤) أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ٣٢ – ذوالقعدة ١٤٠٧ – يوليو ١٩٨٧ ومجلة « البنيان » – العدد ١٤ – صـ١١ وصحيفة « الثبات » – العدد ٢٨ – صـ٦ – وفيما قدّر أبو عبد الله قوام هذه القوة بـ ٩ آلاف

رجل من جيش حكومة كابل .. أفادت مجلة « المجاهدون » – العدد السادس – رمضان وشوال ١٤٠٧ – مايو ويونيو ١٩٨٧ – صـ٢٣ : « أن القوة ضمت ثلاثة آلاف جندى حكومي وسوفييتي .. ووصل عدد الدبابات إلى ٨٠٠ دبابة إضافة إلى أربعة مدافع (بي . إم . ٤١) و ١٥ مدفع (بي . إم . ١٢٠) وعدد آخر من مدافع الهاون و (أوبوس أو – سي) الثقيلة .. إضافة الى قوة من الكوماندز ومليشيات محلية »

(٥) أنظر : مجلة « البنيان » – العدد ١٤ – صـ١١ – و « الثبات » العدد ٢٨ – صـ٦ مع ملاحظة أن مجلة « البنيان » هي التى أوردت تاريخ الكمين في الثاني والعشرين من مايو الذي وافق الخامس والعشرين من رمضان ، بينما ذكرت « الثبات » أن الكمين كان يوم الرابع والعشرين من رمضان جدير بالذكر أن اضطراباً ملموساً وقعت فيه مجلات المجاهدين المختلفة وروايات الإخوة العرب كذلك حول تواريخ تحرك القوة من موقع لآخر .. وبين يوم ويوم .. ومردّ ذلك – على الأغلب – إلى عدم وجود توثيق يومي للأحداث وقتها ، وإلى حدوث هذه التحركات والتنقلات بعيداً عن ساحة الرؤية المباشرة للمجاهدين فى المنطقة .. ولقد ذكرت مجلة « الجهاد » – العدد ٣١ – صـ٢٩ أن أخبار الرصد يوم الخميس ٢٤ رمضان وافت بأن « القوة تحركت من ولاية (لوغر) فى طريقها إما إلى قلعة (تشاوني) وإما إلى (خوست) لدعم مراكز العدو هناك ، وما لبثت أن اتجهت إلى (تشاوني) لتنطلق عبر الوادي فى طريقها إلى مراكز العدو .. » وإذا كان احتمال أن تتجه القوة إلى « خوست » قائماً – قبل أن تتجه بالفعل إلى (تشاونى) – فان التاريخ المذكور لاينطبق مع بقية الروايات الأخرى ، والمكان « لوغر » مختلف كذلك عما أوردته المصادر الأخرى من إنطلاق القوة من « غرديز » بعد أن تجّمعت فيها فرق عديدة إحداها فرقة « لوغر » الثانية عشرة .. قبل عدة أيام .

(٦) أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ٣١ – صـ٢٩ وقد أكد ذلك أيضا الأخ أبومحمود الذي سجل التاريخ كبداية لقصف الطائرات .

(٧) أنظر : مجلة « البنيان » – العدد ١٤ – صـ١٢ و « الثبات » – العدد ٢٨ – صـ٦

(٨) جميع المحادثات اللاسلكية المذكورة .. والتى سترد لاحقاً نقلتها عن مجموعة أشرطة كاسيت سجلها الإخوة أثناء المعركة ووصلني منها ١٤ شريطاً ، ثلاثة منها ليوم ٢٩ رمضان .

(٩) فى مبادرات ذاتية .. حاول بعض الإخوة العرب استخدام « الشيفرة » فى المخابرات اللاسلكية بينهم ، وكان أبومحمود من أكثرهم إبداعاً وطرافة في هذا الأمر .. فكان يسمي السيارة : « دابة » والقذائف أو المرمي بـ « البرسيم » أو بـ « الهدايا » والراجمة بـ « الآلة » أو « الماكينة » .. وهكذا .. علاوة على وجود نظام عام للشيفرة كان متداولاً بين مراكز الإتصال قبل المعركة يستخدم غالب الأمر للمحادثات بالغة الأهمية والحساسة .

(١٠) أنظر : مجلة « البنيان .. » – العدد ١٤ – صـ٢٠ ويضيف الأخ البتال « أن الشهيد عبدالوهاب كان يرمي على راجمة الصواريخ (بي . ام . ١٢) أمام غرفة الطائف ، ولاندري هل انفجر قاذفه بنفسه أم سقط صاروخ بجواره فاستشهد رحمه الله .. » .

(١١) يذكر أبوحفص أن القصف المذكور بالهاون كان من قبل القومندان « نعيم » من « الحزب الاسلامي » حيث أنه يتمركز في هذا الجانب .

(١٢) يذكر الدكتور عبدالله عزام رحمه الله فى مجلة « الجهاد » – العدد ٣٢ – صـ٦ أنه « أثناء الدقائق الثلاثين – التي كان القصف على أبي عبدالله وأبي عبيدة والأخوين الآخرين فى (تبة القيادة) منهمراً عليهم – بدأ الأخوة يستغيثون ويطلبون من غرفة الإتصالات النجدة من أية جهة من جهات المجاهدين ، وصاحوا بالأخ الذي يحمل اللاسلكي بأن يتصل بالشيخ سياف أو المهندس حكمتيار بأن يوجهوا نيران مدافعهم الثقيلة نحو مصدر الهاون وأن يرسلوا النجدة ، فأرسل الشيخ سياف أربعين مجاهداً وأرسل حكمتيار مثلهم .. » .